توظيف الإعجاز القرآني
في الرد على شبهات الإلحاد العلمي
قراءة في كتاب (سحر الواقع) لعالم
الأحياء (ريتشارد دوكنز)

Employing the Quranic miracles
in response to the suspicions of Scientific Atheism
Reading in the book (Magic of Reality) by the biologist
(Richard Dawkins)

أ.م.د.أحمد عامر الدليمي
كلية التربية للبنات
جامعة الموصل

Assistant Professor
Dr.Ahmed Amer Al-Dulaymi
College of Education for Girls
University of Al Mosul

الكلمات المفتاحية:
(الإعجاز القرآني، شبهات، الإلحاد العلمي، سحر الواقع، ريتشارد دوكنز)

الملخص

يعد الإلحاد العلمي من وجوه الإلحاد أكثر انتشاراً في الغرب في أوساط العلماء ذوي الاختصاصات العلمية المختلفة، ولعل من أهم دعاة الإلحاد العلمي عالم الأحياء البريطاني ريتشارد دوكنز الذي قدّم عدداً من الكتب العلمية المهمة، هدفه منها مخاطبة العامة، ولعل خطاب دوكنز الإلحادي هو الأقوى عالمياً. في هذه الورقة البحثية عرضنا عدداً من آراء (الإلحاد العلمي) الصادرة عن عالم الأحياء دوكنز في كتابه (سحر الواقع)، ومن ثم أخضعناها للمناقشة عبر حقائق العلم أيضاً ومحاكمتها بالحجة والعقل والمنطق من خلال توظيف الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت ذكر الحقائق العلمية. ويعد كتاب (سحر الواقع) من كتب العامّة المهمة لما امتاز به من قوة وسلاسة العبارة كما ذكرت التايمز. وقد تعرضنا في بحثنا هذا إلى تلك التحديات وناقشناها بطريقة مدعّمة بأمثلة مهمة، حاول دوكنز من خلالها جلب الأدلة وإقناع الناس بعدم الحاجة إلى وجود إله، ومن ثم تحليل ومناقشة تلك الأفكار والحجج والطروحات بأسلوب علمي مناسب. ولعل المعجزة العلمية للقرآن الكريم خير ما تناقش به الطروحات العلمية اليوم؛ إذ بات العلم لغة العصر وحجة العلماء على الناس؛ وإن ما قدمه القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة من إشارات علمية كانت كفيلة في إقناع كثير من علماء الغرب وإيمانهم بوجود الله وأنه الخالق المدبر لهذا الكون والقيوم عليه.

Abstract

Scientific Atheism is one of the faces of atheism more prevalent in the West among scientists with different scientific specializations, and perhaps one of the most important advocates of scientific atheism is the British biologist Richard Dawkins, who presented a number of important scientific books, whose aim is to address the public, and perhaps Dawkins' atheistic speech is the strongest in the world.

In this research paper, we presented a number of opinions of (scientific atheism) issued by the biologist Dawkins in his book (The Magic of Reality), and then we subjected them to discussion through the facts of science as well and tried to argue through reason and logic by employing the noble Qur'anic verses that is related to scientific facts. The book "The Magic of Reality" is an important public book because of its strength and fluidity of phrase, as mentioned by the Times.

In our research we have dealt with challenges related to (scientific atheism) and discussed them in a way supported by important examples, through which Dawkins tried to bring evidence and convince people that there is no need for God, and then analyse and discuss these ideas, arguments and propositions in an appropriate scientific manner.

Perhaps the scientific miracle of the Holy Qur'an is the best scientific proposition discussed today. As science has become the language of the century, and the scholars 'argument is given to people. The scientific indications provided by the Holy Qur'an and the authentic Sunnah of the Prophet were sufficient to convince many Western scholars and their belief in the existence of God and that he is the Creator who is the mastermind of this universe and the one who maintains it.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

الإعجاز القرآني هو الخطاب الناجح في الرد على شبهات الإلحاد العلمي، وهو في الوقت نفسه مادة مهمة لدى منكري الرسالات السماوية، فمادته مستهدفة عند دعاة الإلحاد. من هنا فإن قضية توظيف الإعجاز القرآني تحمل أهميّة كبرى في ترسيخ قضايا الإيمان في الرد على شبهات الإلحاد، وخاصة ما عُرف اليوم بالإلحاد العلمي. ثم إن أسئلة كثيرة يمكن أن تطرح في ميدان الحوار بين الإيمان والإلحاد ولعل جوهرها السؤال الآتي:

هل ثمة تناقض بين مسائل العلم الطبيعي مع قضية الإيمان بالله؟. هذا هو السؤال الأهم الذي يطرح نفسه عند الحديث عن مسائل الإلحاد العلمي. فما أدلة الذين يدَّعون الإلحاد من العلماء العالميّين المعروفين في مجالات علمية عديدة؛ فنخص من ذلك مجالات الفيزياء والفلك والأحياء؟. إنهم يُنفون الحاجة لوجود خالق؛ إذ لا يرون له ضرورة لتفسير العالم، ثم إنّهم يعتقدون أن حقائق العلم الطبيعي كفيلة بذلك التفسير؛ ابتداءً بوجوده وانتهاءً بمصيره وفنائه، وأن قوانين الطبيعة وقوانين الفيزياء تعمل بذاتها دون حاجة إلى خالق أو قيوم يقوم عليها ويضمن الحفاظ عليها واستمرارها.. هذا حدّ قولهم. فما الردود الممكنة على تلك الادعاءات؟.

يذكر دوكنز[1] المنكر للأديان والكتب المقدسة بعبارة موجزة قائلاً: (إذا كانت هذه الكتب المقدسة حقيقة قد كُتبت وأمليت أو أوحي بها من الآلهة ذوي المعارف الكلية، ألا تعتقد أنه من الغريب ألا يقول أولئك الآلهة شيئاً عن تلك الأشياء المهمة والمفيدة؟)[2]. وهو يقصد هنا المسائل العلمية التي يكتشفها البشر. هذا سؤال مهم صادر عن أهم مدّعي الإلحاد العلمي والمروّجين له.. فما دام أن الله الخالق لهذا الكون العالم بأسراره وهو نفسه منزل الرسالات السماوية، ألا يستحق أن يذكر شيئاً من الإشارات العلمية في الكتب المقدسة؟. نعم نحن نرى أن هذا الأمر فيه جانب مهم من الحق، ومن هنا تماماً فقد جاء بحثنا هذا منطلقين من هذه المسألة للبحث بين طيات كتاب دوكنز نفسه ذو الطبيعة العلمية ونذكر توافقاتها مع الإشارات العلمية المهمة في كتاب الله سبحانه ليكون ذلك ردّاً علمياً على بعض أفكار كتاب (سحر الواقع) الإلحادية. ولكن في الوقت نفسه نجد أن أمثال هؤلاء

(١) كلينتون ريتشارد دوكنز عالِمُ سلوك حيوان، و عالم أحياء تطوري، و كاتب. وأستاذ الفهم العام للعلوم منذ ١٩٩٥ حتى عام ٢٠٠٨. ظهرت شهرة دوكينز بدايةً بعد كتابه الجين الأناني، والذي أشاع وجهة نظر ارتكاز التطور على الجينات. أَسَّسَ عام ٢٠٠٦ مؤسسة ريتشارد دوكينز للعلوم والمنطق. عُرف دوكينز بكونه ملحداً و منتقداً للخلقية و التصميم الذكيّ. حصل دوكينز على جوائز أكاديمية و جوائز كتابة مرموقة عديدة، كما أن له ظهوراً منتظماً على التلفاز و الراديو و الإنترنت، حيث يناقش خلالها كتبه، و إلحاده، و آرائه و أفكاره كمثقف عام. [المصدر: موسوعة ويكيبيديا].

(٢) سحر الواقع، ريتشارد دوكنز: ص ١٠٠.

العلماء الذين يتبنّون الإلحاد يعترضون محاولة البعض استنباط الإشارات العلمية من النصوص الدينية، وهذا تناقض واضح، فمن جانب يطالب دوكنز بأهمية ورود بعض الإشارات العلمية في الكتب المقدسة، ثم هم يعترضون عليها عندما يتم تقديمها إليهم.

وقد تضمن البحث مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة عرضنا فيها أهم الاستنتاجات والتوصيات، أما المبحث الأول فكان بعنوان: الواقع المحسوس والغيب الخفي، تناولنا فيه ما ذكره دوكنز في كتابه حول هذه القضية بين الواقع والغيب، ولعل مما يُشار إليه أن عنوان كتابه (سحر الواقع) يتضمن جانب الواقع في هذا الكون الذي يبدو كالسحر باعتباره الجانب المغيَّب أو كما يبدو، وتناول أساليب التمييز بين الواقع وغيره وذكر الأساليب العلمية ومنها (النموذج)؛ إذ تضمن المبحث جملة من المطالب هي: ما الواقع ؟ وكيف نستدل عليه ؟، امتزاج عالم الغيب بعالم الشهادة والتواصل بينهما، من الأساليب العلمية في الكشف عن الواقع. أما المبحث الثاني فكان بعنوان: القصة الإعجازية والأسطورة، تناولنا فيه طروحات دوكنز وانتقاداته للقصة الإعجازية باعتبارها تحدث إرباكاً للعلوم، والرد على هذا الادعاء من خلال ما بيّناه حول المعجزات الحسية ومحاكاتها علمياً؛ إذ تضمن جملة من المطالب هي: أولاً: تحوّل أصحاب السبت إلى قردة وخنازير، ثانياً: المحاكاة العلمية لمعجزات الأنبياء، معجزة اليوم تكنولوجيا الغد، السحر البطيء في التطور، السحر البطيء في التطور، الانتقاء أم الاختيار في الخلق. أما المبحث الأخير فقد تضمن موضوعات عديدة أخرى استحقت الذكر والتحليل والبيان. مثل: من هو أول إنسان؟، وقضية التطور، والشمس مصدر للطاقة، وقضية التماثل والمقابلة بين تطور اللغات وتطور الحياة، وغيرها.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول
الواقع المحسوس والغيب الخفي

ريتشارد دوكنز ألّف كتابه هذا (سحر الواقع) ووضع في مطلع كل مبحث منه حديثاً عمّا سمّاه أساطير وخرافات، مزج في حديثه بين بعض الخرافات التي لا تنطلي على ذي لُب، لكنه أيضاً ادّعى بأن معجزات الأنبياء ليست سوى صور مُنوّعة من هذه الأساطير والخرافات.

ولكن كيف يسعنا التمييز بين معجزات الأنبياء من جانب وخرافات المدّعين وسحر السحرة من جانب آخر؟. سؤال يتبناه الملحدون بقوة ولا يرون سبيلاً إلى التمييز بينهما. فما دامت أنّ هذه الادعاءات غير مُدَعَّمة علميّاً بأدلة مما اكتشفه العلم الحديث فهي عندهم من قبيل الأساطير حتى تثبت صحّتها. ولذلك فإنهم يرون من حقهم القول بأن معجزات الرُسل ما هي إلا خرافات وأساطير ترويها الكتب القديمة، نتجت عن العقل الإنساني القديم الذي لم

يكن يدرك فحوى الخطاب العلمي.

ولكن في الوقت نفسه نجد ريتشارد دوكنز وفريقه من الملحدين يروي لنا خرافة وأسطورة تبنّاها هو ومن جاء قبله من الملحدين وهي خرافة (الصدفة)؛ مفادها أن الكون والإنسان والأحياء جميعهم جاءوا صدفة؛ بل إنها ملايير الأحداث من الصدف المتوالية التي ارتكز بعضها على بعض لتظهر في النهاية الحياة كما نعيشها والكون كما نراه.

ما الواقع ؟ وكيف نستدل عليه ؟

يقول دوكنز في مطلع كتابه: (الواقع هو كل ما له وجود ويتحقق على الدوام أليس كذلك؟ لكن الأمر ليس كذلك، هناك مشاكل عديدة. ماذا عن الديناصورات التي كانت موجودة ذات يوم ولم يعد لها وجود الآن؟ ماذا عن النجوم سحيقة البعد والتي بمرور الوقت يصل إلينا ضوؤها بينما لا نستطيع رؤيتها وربما تكون قد تلاشت؟. ماذا عن مجرة بعيدة بالغة البعد إلى درجة تتعذر معه رؤيتها بالعين المجردة؟. ماذا عن نوع من البكتريا صغيرة الحجم إلى درجة لا يمكن رؤيتها بلا ميكروسكوب قوي؟. هل يتعين أن نقول إن هذه أشياء لا وجود لها لأننا نعجز عن رؤيتها؟.. كلا)[(١)].

بالتأكيد تكون إجابة دوكنز بأن هذه القضايا الغيبية هي من الواقع الموجود لأنه لا يستطيع إنكارها، وقد كان فيما سبق في قرون ماضية -كأحد تفسيرات الوجود- أن حواسنا المجردة هي السبيل الوحيد لمعرفة الشيء موجود في الواقع المُعاش أم لا، أما اليوم فقد اكتشفوا أن تلك الرؤية كانت غير صحيحة. فنجد هنا أن دوكنز يعرض قناعة مطوّرة للرؤية الإلحادية عن سابقتها القديمة التي كانت لا تعترف إلا بما يمكن رؤيته أو لمسه أو التعامل معه بواحدة من الحواس الخمس، ولا وجود لما سوى ذلك، فتكنولوجيا اليوم أنارت الدرب والعقل كثيراً وأصبحت كواشفها عن الواقع هو الصواب الحاكم.

يُلمح دوكنز بقوله: أننا نستطيع تدعيم حواسنا من خلال استخدام أدوات معينة: التليسكوبات للمجرّة، أو الميكروسكوبات للبكتريا، فهذه الأجهزة تساعدنا في توسيع حواسنا فنقتنع بوجود المجرات والبكتريا[(٢)]. هذه كانت غير موجودة في واقع من عاشوا في قرون ماضية لأنهم لم يمتلكوا ما يساعدهم في توسيع حواسهم، أما نحن فقد امتلكنا ما يوسع حواسنا فأصبحت عندنا موجودة وجزءً من واقعنا. هذا يعني أن حواسنا محدودة جداً وربما لو أننا فعّلنا أجهزة أخرى تعتمد على التقدم التكنولوجي لتمكنا من توسيع واقعنا شيئاً فشيئاً.

ولكن ماذا عن موجات الراديو؟.. لا تستطيع عيوننا رؤيتها ولا تستطيع آذاننا سماعها[(٣)]. لكننا سنستعين مرة أخرى بأجهزة قادرة على كشف الواقع الخفي تحولها إلى إشارات يمكن رؤيتها أو سماعها. وهكذا صارت هذه الموجات جزءً من واقعنا مع أنها

---

(١) سحر الواقع: ٩.

(٢) ينظر: م.ن.: ٩.

(٣) سحر الواقع: ٩.

كانت كذلك جزءً من واقع القرون الأولى لكنهم لم يتحسسوا هذا الواقع قطعاً. هذه الأجهزة التي صنعها الإنسان من خلال التراكم المعرفي والعلمي لقرون طويلة، تساعد حواسنا في إعادة رسم الصورة من جديد، تضاف إلى مداركنا على أنها جزءٌ من واقعنا الخفي. وهذا بحد ذاته لهو الدليل العلمي القاطع على أن حواسنا لوحدها لا تكفي لتفسير الموجودات من حولنا، وهو دليل على الحاجة إلى الإيمان بوجود أشياء لم يتمكن الإنسان من الوصول إليها عبر حواسه المجردة، وهذا دليل على أننا اليوم لا نشاهد كثيراً من المخلوقات ولكن بعد حين سيتمكن الناس من إضافة مشاهدات جديدة إلى مشاهداتهم الحالية. كما أن الحفريات التي نستطيع أن نراها بالعين المجردة بمقدورها أن تدلنا على بعض الأشياء حدثت منذ ملايين السنين، وتبقى أشياء كثيرة خافية علينا وهي من الغيب.

من أمثلة عوالم الغيب التي لا يراها الإنسان وهي مستقرة في واقعه فوردت في القرآن الكريم كإشارات علمية وهي من عوالم الغيب وجعلها ميداناً للمعرفة والتنبؤ قوله تعالى: ﴿وَالجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة عمـ:٧]، فنبّهت الآية الكريمة في تشبيه بليغ[١] من كلمتين أنّ الجبال كالأوتاد مغروسة في القشرة الأرضية واليوم يكتشف عالم غربي هذه الحقيقة العلمية من خلال التكنولوجيا التي توصل إليها العلم الحديث، فقد عرّفت الموسوعة البريطانية الجبل بأنه: كتلة من الأرض تبرز فوق ما يحيط بها، وهو أعلى من التل. وجميع التعريفات الحالية للجبال تنحصر في الشكل الخارجي لهذه التضاريس، لأن باطن الأرض كان يعد من أمور الغيب التي لا يعلمها أحد من البشر، دون أدنى إشارة لامتداداتها تحت السطح، ثم ثبت أخيراً أنها تزيد على الارتفاع الظاهر بعدّة مرات. ولم تُكتشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما تقدّم السير (جورج ايري)[٢] عام ١٨٥٥م بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساساً مناسباً للجبال التي تعلوها، وافترض أنّ القشرة الأرضية وما عليها من جبال لا تمثل إلا جزءً طافياً على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، وبالتالي فلابدّ أن يكون للجبال جذور ممتدّة داخل تلك المنطقة عالية الكثافة لضمان ثباتها واستقرارها[٣]. وقد أصبحت

(١) والتشبيه البليغ هو أحد أهم أنواع التشبيه لأنه قد شغل حلقة وصل بين فن التشبيه وفن الاستعارة، وهو أبلغ أنواع التشبيه لاقتصاده في الكلام وعمق ما يعطيه من المعنى وغزارته. [المصدر: محاضرات أ.م.د.أحمد عامر الدليمي/ مادة البلاغة القرآنية/ علم البيان، المرحلة الثالثة، كلية التربية للبنات، جامعة الموصل].

(٢) السير جورج بيدل أيري ١٨٠١ - ١٨٩٢ فلكي بريطاني تخصص في المغناطيسية والأرصاد الجوية، قام ايري بأرصاد كثيرة اكتشف خلالها شكلا جديدا من عدم التساوي بين حركة كوكب الزهرة والكرة الأرضية كما استطاع أن يعين كتلة الأرض بواسطة تحديد عجلة الجاذبية. وقام أيضا بتصحيح تأثير تشتيت الجو للألوان في أرصاد التلسكوبات الفلكية وإنجازات فلكية أخرى. [المصدر: موسوعة ويكيبيديا].

(٣) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة،منهج التدريس الجامعي،د. عبدالله المصلح ود.عبدالجواد الصاوي:١٨٨-١٨٩.

نظرية (ايري) حقيقة علمية مع تقدّم المعرفة بتركيب الأرض الداخلي على طريق القياسات الزلزالية فقد أصبح معلوماً على وجه القطع أن للجبال جذوراً مغروسة في الأعماق ويمكن أن تصل إلى ما يعادل ١٥ ضعفاً من ارتفاعها فوق سطح الأرض، وأن للجبال دوراً كبيراً في إيقاف الحركة الأفقية الفجائية لصفائح طبقة الأرض الصخرية[١]. وقد وصف القرآن الكريم وظيفة الجبال فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: من الآية ١٥]، ثم يأتي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لما خلق الله الأرض جعلتْ تميد، فخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرّت...)[٢] ليشرح تفاصيل ما حدث، وهذا ما يؤكده العلم الحديث.

امتزاج عالم الغيب بعالم الشهادة والتواصل بينهما:

غير أن ما نراه بوساطة التلسكوب لا يعدو سوى آلة للزمن ينقل صورة المكان التي كانت في سنوات سابقة، فأقرب نجم لنا (بروكسيما سنتوري) يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، فما تراه في عام ٢٠٢٠م هو ما كان يحدث في عام ٢٠١٦م. أما أقرب مجرة إلينا (اندروميدا) تبعد عنّا بمقدار مليونين ونصف المليون سنة ضوئية[٣]. وهذا يعني أنّنا مهما حاولنا الإحاطة بالواقع وموجوداته فلن نتمكن من ذلك. يقول دوكنز: ولأن الواقع لا يشتمل فقط على الأشياء التي نعرفها عنه حالياً، فإنه يتكون أيضاً من أشياء لها وجود، لكننا لا نزال لا ندركها حتى الآن ولن نعرف شيئاً عنها حتى في زمن قادم، ربما حتى نُنشئ أدوات أفضل تعزّز حواسنا الخمس. ويذكر العالم الروسي سيرجي بروبوف[٤] قائلاً: بالتأكيد فإن هناك مجرات على بعد ١٤ مليار سنة ضوئية لن نصلها مهما فعلنا ومهما أوتينا من إمكانات تكنولوجية مستقبلاً. لذا فإنا أصبحنا اليوم محاطين بعوالم مغيبة عنّا مع أنها من واقعنا المعاش في هذا الكون. وهذه المجرات ستبقى بالنسبة لنا من عالم الغيب الذي لا يمكن اكتشافه.

أما الذّرات فقد كانت موجودة على الدوام حالها كحال مخلوقات الواقع المعاش كلها. ولكننا لم نتمكن من إدراك وجودها إلا في زمن قريب جدّاً، ومن المحتمل لمن سيخلفوننا أنهم سيتعرفوا على أشياء أخرى كثيرة لا علم لنا بها في الوقت الراهن.

هذا يعني أن العلم نظرته متغيرة في تفسير الكون والحياة من زمن إلى آخر منطلقاً من تغير قدرتنا على استيعاب أجزاء إضافية من الواقع المُعاش. والأدلة على ذلك كثيرة من أقوال العلماء، وكمثال على ذلك نجد دوكنز يتساءل: هل يوجد حقاً غرباء في الفضاء الخارجي لم نشاهدهم أو نسمع عنهم قط؟.. هل هم جزء من الواقع؟ .. لا أحد يعرف[٥].

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: ١٨٩.
(٢) الحديث رواه الترمذي واحمد باختلاف يسير.
(٣) ينظر: سحر الواقع: ١٠-١١.
(٤) البروفيسور سيرجي بروبوف هو عالم الفيزياء الفلكية الروسي، والأستاذ بالمعهد الفلكي التابع لجامعة موسكو الرسمية. [المصدر: برنامج رحلة في الذاكرة/ لقاء خاص معه].
(٥) ينظر: سحر الواقع: ١١.

ولكن نقول ما دام أن الأمر مفتوح على مصراعيه للعلم في كونه دائبٌ على إضافة أجزاء أخرى خفية مُغيبة من الواقع إلى عالمنا المُدرك؛ فما يدرينا لعل المؤلف وأتباعه سيجدون يوماً ما سبيلاً علمياً لوجود عالم مغيب عنّا كعالم الملائكة أو عالم الجن وغيرها؟!. العلم قد فتح بابه على مصراعيه فينبغي أن نترك الفرصة للأجيال القادمة لعلها ستتمكن من إثبات ذلك. ولكن هذا المنطق سيحرم أجيالاً كثيرة مضت وستمضي دون معرفة الكثير عن عوالم مغيبة عنها، ومن ثم الإيمان بوجودها.

من الأساليب العلمية في الكشف عن الواقع:

النموذج Model: كيف نختبر ما نتخيله هل هو من الواقع أم لا؟ .. يرى دوكنز أن النموذج هو الوسيلة التي تتيح لأي عالم استنتاج ما هو واقع إذا لم تستطع حواسنا الخمس اكتشافه مباشرة[1]. وقد يكون النموذج صورة طبق الأصل مصنوعة من الخشب أو البلاستك، أو ربما صياغات رياضية على الورق، أو مجرد محاكاة في جهاز كمبيوتر. ثم ننظر إن كانت النتائج صائبة أم خاطئة، فنكرر المحاولة[2]. فمثلاً وحدات الوراثة (الجينات أو الـ DNA) لدينا معرفة كبيرة بها لكننا لا نستطيع رؤية تفاصيل مظاهرها حتى من خلال ميكروسكوب قوي، فكل ما نعرفه تقريباً عنها يأتينا على نحو غير مباشر من نماذج مُخترعة نُخضعها للاختبار[3]. فمندل وجد دلائل غير مباشرة على أن نموذجه عن الوراثة كان تمثيلاً جيداً لشيء ما في دنيا الواقع. وهكذا فإن اختبار النماذج هو وسيلة لإقناع الحواس بوجود شيء لا يمكننا اكتشافه بحواسنا المجردة أو من خلال أجهزة تعمل على توسيع قدرة حواسنا فنلجأ إلى النماذج والاختبارات. هنا أيضاً يتساءل دوكنز: هل يعني هذا أن الواقع يحتوي على أشياء قابلة للاختبار، على نحو مباشر أو غير مباشر، بحواسنا أو من خلال طرائق العلم؟. وماذا عن أشياء أخرى من نوع الغيرة والبهجة والسعادة والحب؟ أليست كُلُّها أيضاً من الواقع؟. ثم يجيب فيقول: نعم إنها واقع لكنها تعتمد في وجودها على العقول. العقول البشرية ومن المحتمل عقول الأنواع الأخرى من الحيوانات المتطورة مثل الشمبانزي الكلاب الحيتان أيضاً. ولا تشعر الصخور بالبهجة أو الغيرة، والجبال لا تُحب. فهذه المشاعر واقع مكثف لهؤلاء الذين تتبدّى لديهم لكنها لا توجد قبل وجود العقول[4].

ويسترسل دوكنز قائلاً في حديثه عن العقل: (ومن المحتمل أن مشاعر كهذه، وربما مشاعر أخرى، نستطيع الشعور في الحلم بها على كواكب أخرى، فقط لو كانت تلك الكواكب تحتوي على عقول أو شيء ما مكافئ للعقول (من يعلم؟)! فربما كانت هناك آلات غير تقليدية للتفكير أو المشاعر قد تسللت إلى

(١) ينظر: سحر الواقع: ١٢.
(٢) ينظر: م.ن.: ١٢-١٣.
(٣) ينظر: م.ن.: ١٣.
(٤) ينظر: م.ن.: ١٥.

موضع آخر في الكون[1]. هكذا إذن يمكن أن نتخيل أن للنجوم قدرات غير تقليدية للتفكير والشعور خارجة عن نطاق واقعنا على كوكب الأرض. لذا فإن الإحاطة بقدرات الكشف عن الواقع تبقى بعيدة عن متناول الإنسان مهما بلغ من العلم والإحاطة التكنولوجية. في الحقيقة فإن طروحات دوكنز هذه تذكرنا بعديد من الآيات القرآنية الكريمة منها قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سورة سبأ: من الآية ١٠]، أو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]. فما أقرب أفكار دوكنز العلمية التي تحمل طابع الغيب، ومما يمكن أن يُكتشف مستقبلاً، لكن القرآن الكريم ذكرها كالإشارات علمية مُسلم بها ويَعتقد بوجودها كل مسلم.

يقول دوكنز: (لقد توصلنا إلى معرفة ما هو واقع بواحدة من ثلاث طرائق. ونستطيع اختبار إحداها مباشرة باستخدام حواسنا الخمس، أو على نحو غير مباشر باستخدام حواسنا المدعومة بأجهزة معينة مثل الميكروسكوبات والتليسكوبات، أو حتى بشكل غير مباشر أكثر من هذا بخلق نماذج لما ينبغي أن يكون واقعاً، ومن ثم اختبار تلك النماذج لنرى ما إذا كانت تنجح في التنبؤ بالأشياء التي نستطيع أن نراها (أو نسمعها أو نحس بوجودها) بمساعدة الأجهزة أو من دونها. في النهاية، دائماً ما يعود الأمر إلى حواسنا بطريقة أو بأخرى)[2]. نستنتج من ذلك أن الاختبارات التي تحدّث عنها دوكنز ما هي إلا وسائل لإقناع الحواس بوجود شيء لا تتحسس هي به أصلاً، أو لا تدركه تلك الحواس، فهو مُغيَّبٌ بالنسبة إلى حواسنا.

ثم يذكر دوكنز أن هناك أصواتاً تبلغ من القوة حدّاً يتعذر علينا سماعها، تسمى أصواتٌ فوق سمعية (الألتراساوند) لكن الخفافيش تتمكن من سماعها وتستفيد من صداها لتشق طريقها أثناء تجوالها، كما توجد أصواتٌ تصل إلى درجة من الضعف تحول دون سماعنا لها، وتسمى أصوات تحت سمعية). هذا المثال الذي استشهد به دوكنز مصداق لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تحدث عن الأصوات الصادرة من القبور بسبب صرخات المعذبين فيها، ونص الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (.... وأمّا المنافق والكافر، فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس؛ فيقال لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)[3]. أي تسمعها المخلوقات كلها إلا الإنس والجن.

ثم يكمل دوكنز في ضرب الأمثلة الدالة على قصور قدرات الإنسان في اكتشاف الواقع[4] قائلاً:

(١) ينظر: سحر الواقع: ١٥.

(٢) ينظر: م.ن.: ١٥.

(٣) حديث أنس في صحيح البخاري / كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: ج٢ ص ١٢٣: وصحيح مسلم كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت ج٤ ص ٢٢٠٠ .

(٤) ينظر: سحر الواقع: ١٦٤.

ينطبق هذا الشيء نفسه على الضوء، فنحن لا نستطيع رؤية الضوء فوق البنفسجي لكن الحشرات تستطيع رؤيته. وهناك بعض الزهور لديها بعض الخطوط أو الأشكال الأخرى لإغواء الحشرات وجذبها إليها لتلقيحها. أشكال يمكن رؤيتها فقط في نطاق الأطوال الموجيّة فوق البنفسجية، وتستطيع عيون الحشرات مشاهدتها. وتتواصل ألوان الطيف إلى مستويات متزايدة في ترددات أكبر كثيراً من فوق البنفسجية، ولمدى أبعد مما تستطيع الحشرات رؤيته.

وبعد طروحات دوكنز هذه نتساءل عن سبب إنكار الملحدين إمكانية وجود الملائكة، وأن ما يذكرونه عن ألوان الطيف (النور) وتردداته العالية التي لا تُرى بالنسبة للإنسان لهي دليل مهم على إمكان وجود مخلوقات كالملائكة أو الجن والشياطين لا يستطيع الإنسان رؤيتها. يقول دوكنز(١): (نحن بني البشر نرى طيف قوس قزح فقط، من الألوان المرئية بين فوق البنفسجي (الأعلى قوة) تقريباً، والأحمر (الأقل قوة) تقريباً يمثل نطاقاً ضئيلاً للغاية في وسط نطاق طيفي هائل يمتد من أشعة كاما في الحد الأعلى لينتهي عند موجات الراديو في الحد الأدنى. فيقول دوكنز(٢) مُعلّقاً: (غالباً إن الطيف بأكمله غير مرئي بالنسبة لنا).

خلاصة القول في هذا المبحث أن كثيراً مما حولنا من المخلوقات والأشياء هي مجاهيل قد طواها عالم الغيب، يحاول العلم الوقوف على بعض مؤشراتها ومفرداتها لاستثمارها وتسخيرها، وقد ذكرنا ما رآه دوكنز والتساؤلات التي يطرحها حولها. لكن القرآن الكريم ذكر كثيراً من عوالم الغيب العلمي فعرفه الناس منذ نزول القرآن، وهذه الإشارات العلمية هي الدليل القاطع على صدق الرسالة المحمدية، وهي في الوقت ذاته تشهد على صدق معجزته صلى الله عليه وسلم، وهي ردّ واضح وصريح على منكري الاعجاز القرآني.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
القصة الإعجازية والأسطورة

القصة الإعجازية كما يسميها دوكنز، يقصد بها القصص التي ترتكز على أمثلة مهمة على خرق قوانين الطبيعة كالسير على الماء أو تحويل مادة إلى أخرى أو تحويل أمير إلى ضفدع، ويقول بأن المعجزات على هذا الأساس أو هذه الشاكلة تمثل بالتأكيد إرباكاً شديداً للعلوم(٣). وهذا صحيح بالفعل، فالعلوم تتعارض تماماً مع هذه القصص التي هي بحد ذاتها تتعارض مع السنن الكونية. فما ضُرب من أمثلة تحوي على خرق لقوانين الكون كتحويل الأمير إلى ضفدع فهي لا تعدو أن تكون قصصاً تشويقية للأطفال فحسب ولا ينبغي على دوكنز أن يجمع بينها وبين قصص الأنبياء

(١) ينظر: م.ن.: ١٦٥.
(٢) ينظر: م.ن.: ١٦٦.
(٣) ينظر: م.ن.: ٢٦٠.

ومعجزاتهم.

فبم تتميز قصص الأنبياء عن غيرها من القصص التي تتضمن معجزاتهم؟

كثيراً ما يناقش دوكنز ومعه جيل كامل من العلماء معجزات الأنبياء ويعتبرونها من الخرافات التي لا تُصدّق وذلك لسبب واضح -كما يعتقدون- هو أن هذه القصص تتضمن مخالفات علمية واضحة ولا يمكن لتفاصيلها ولأحداثها الانسجام مع العلم والسنن الكونية لا حاضراً ولا مستقبلاً.

نقول: إن معجزات الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم تقع في حيّز السنن الكونية وعلى حافات العلوم غير المُكتشفة وقت وقوعها وهي ذات جدوى ونفع للبشر، وسوف نعرض للمعجزات الحسية المختلفة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ونبيّن مدى انسجامها العلمي مع السنن الكونية وموضع الإعجاز فيها. أما ما ضربه دوكنز من القصص الخيالية كقصة تحويل الأمير إلى ضفدع -التي قرأها دوكنز في طفولته- فإنه لم يرد في معجزات الأنبياء منها شيء سوى قصة عقوبة أصحاب السبت في مسخهم قردة وخنازير، وقد ذكرها القرآن بأسلوب علمي دقيق يمكن أن نقف على تفصيلات ذلك في هذا البحث. لذا فإن المعجزات لا تسبب قطعاً إرباكاً للعلوم أو الفكر العلمي لأنها تطبيقات علمية كبرى لا يسع البشر بطاقاتهم البشرية المحدودة إنجازها، فمعجزات الأنبياء الواردة في القرآن الكريم كلها مندرجة فيما يمكن أن يكون اختراعاً علمياً لا قدرة للبشر عليه ؛ لا قصصاً عبثية كما يدّعي دوكنز.

فالتساؤل الذي يطرحه الملحدون: بم تتميز معجزات الأنبياء عن القصص العبثية التي ترد علينا من السحرة وغيرهم؟.. إن معجزات الأنبياء امتداد لناموس الكون في العلم والحياة وهي نظرة تطورية للسنن الكونية. وفيما يأتي بيان ذلك:

أولاً: تحوّل أصحاب السبت إلى قردة وخنازير:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[النساء: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة: ٦٠].

في الآيات الكريمة إنذار لقوم من الأقوام من ارتكاب جرم تكذيب الرسالات السماوية، فهددهم بعذاب من نوع عجيب، فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ وهو تهديد صريح بالمسخ؛ ولذا فقد تمم بقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾، والطمس: إزالة الأثر وإخفاؤه، فيكون المعنى محو الوجوه وملامحها، وخصّ الوجوه لأنه بها يعرف الإنسان[1]، واليوم توصل الإنسان

(١) بصمة الوجه؛ تعرف بها هوية الإنسان وبها يتمايز البشر؛ وفي الآية ما فيها من الإشارات المستقبلية لأهمية

إلى بصمات عدّة منها بصمة الوجه والأذن والعين والصوت، فكل ذلك سيمحى بالطمس، فلا يعرف أحدهم الآخر، وهي عقوبة كبرى تشبه عقوبة المسخ قردة وخنازير، فقال: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾، وفي ذلك بيان قدرة الله وعظمته، وقد اختلف المفسرون في معنى العبارة؛ منها قول الآلوسي: (نجعلها على هيئة أدبارها وأقفائها مطموسة مثلها، فإن ما خلف الوجه لا تصوير فيه وهو منبت الشعر)[1]. كما اختُلِفَ في الوعيد هل هو في الدنيا أم في الآخرة.

وأرى -والله أعلم- أن في الآية إعجاز علمي عظيم؛ نتج عن جملة من فنون البلاغة، نقدّمه هنا كتفسير علمي للآية الكريمة: فقوله تعلى: ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ والطمس الذهاب بمعالم الوجه الذي يعرف به الإنسان؛ وقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾؛ العطف بالفاء من قبيل عطف المفصل على المجمل فيكون في العبارة أولاً: تفصيل علمي بعد إجمال فيه؛ إذ أبان أسلوب الطمس وطريقته وهو الرجوع إلى أصل الخلق ومبتداه فقال: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾؛ فتكون العبارة كناية علمية عن الرجوع بخلقهم إلى أطوار الجنين الأولى[2]؛ في المرحلة التي يكون الوجه مطموساً، قبل التصوير؛ قال تعالى: ﴿ثم صوّرناكم﴾ [الأعراف: من الآية ١١]. وذكر الأدبار لأنه موضع استقرار عجب الذنب[3] . وموضعه داخل الفقرات العصعصية الأخيرة في عجُز الإنسان ومؤخره ودُبُره، وهو ما يسمى بعظم العصعصي، فالآية تحمل تهديداً خطيراً هو أنّ الطمس المقصود سيكون في برمجة

اعتماد صورة الوجه كأهم بصمة للتعرف على الشخص فنجد التطور التكنولوجي والتحول من استخدام الوسائل الاعتيادية في شتى المجالات إلى أخرى تعتمد على التقنيات الحديثة والبيانات الرقمية أفادت من عظيم صنع الله تعالى وحكمته في خلق البشر، فلكل فرد خصائصه التي تميزه عن غيره ومن أهم هذه الخصائص الوجه والعينين وغيرهما. فتعد تقنيه تميز الأشخاص واحدة من انجح التقنيات في مجال تحليل الصور وإجراء العمليات عليها. فتقنية تمييز الوجوه أو بصمة الوجه هي ناتج للتقدم الهائل في كافة المجالات وخصوصاً في مجال تقنية الصور وقد لاقت اهتماما من نطاقات عدة سواءً على نطاق المؤسسات الخاصة والحكومية أم على نطاق الأفراد. ويعد الأمن من أهم المجالات التي استخدمت فيها هذه التقنية على نطاق واسع في الآونة الأخيرة.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي البغدادي، تحقيق: د.السيد محمد السيد و سيد إبراهيم عمران: ٥/ ٧١ .

(٢) والردّ على الأدبار بحسب الوجهة العلمية هو ما يسمى اليوم بـــ (التكنولوجيا المعكوسة) وهذا ما يتحدّث فيه العلماء، فبات الاهتمام اليوم كبيراً في تحليل الصناعات لمعرفة أسرار صناعتها بين الشركات المتنافسة، وهو العودة بالمنتج عكسياً لمعرفة مراحل وأسرار تصنيعه، ومن ثم إعادة استنساخها. من ذلك مثلاً تطوير منظومات الصواريخ بحسب (التقنية بالعكس) أو بـ (التكنولوجيا العكسية) والتي شكلت جوهر الصناعات للكثير من الدول.

(٣) عجب الذنب في علم الأجنة هو الشريط الأولي (Primitive Streak) الذي تتكون إثر ظهوره طبقات الجنين كافّة ؛ وخاصة الجهاز العصبي ثم ينكمش ويندثر، ويبقى منه أثر داخل الفقرات العصعصيّة. وقد ورد عجب الذنب في السنة الصحيحة، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي: (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يُركّب). وفي رواية للبخاري: (ليس في الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يُركّب الخلق يوم القيامة).

التخلّق الأول في عجب الذنب، وبذلك فإنّ التخلّق منه سيكون يوم القيامة إنساناً مطموس الخلق فعمّ عقابهم في الدنيا والآخرة. وبين لفظي (الوجه) و (القَفَى) طباق إيجاب، أفاد الإهانة فيما سيؤول إليه حالهم، ثم بيان خطر تكذيب شيء من الكتاب، وبيان عظيم غضب الله على ذلك. وفي تنكير: (وجوهاً) تهويل للخطاب بدلالة المبالغة المفيدة للتكثير، والتفات من خطاب مباشر لأهل الكتاب إلى التنكير؛ لدلالة ما ستؤول إليهم عاقبة السوء؛ وفيه عدم إسناد هذه العاقبة للمخاطبين وفيه كذلك حسن استدعاء لهم إلى الإيمان. وقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ فيصيبهم مثل ما أصاب أصحاب السبت من المسخ قردة. ويرى رشيد الخطيب الموصلي: (والذي أراه أن اللعن يعود إلى النفس فتكون كنفس القردة ولا تبقى نفساً إنسانيّة. وأمّا الطمس فيعود إلى المواهب العقلية فلا تدرك الحق بتاتاً ولا تراه والله أعلم)[1] فيكون المسخ مجازاً وكذلك الطمس يمكن أن يكون مجازاً فهو وعيد لهم بزوال شأنهم. وبحسب ذلك يكون المراد من التشبيه بلعن أصحاب السبت الإغراق في وصفه. ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ ليؤكد إمكانية ذلك المسخ حقيقة، وأنّ وعيد الله لأولئك المستكبرين المعاندين واقع لا محالة أكّد ذلك الالتفات مزدوج من المتكلم (نلعنهم) إلى صيغة الغائب لفظ الجلالة (الله)، ومن الجمع (نلعنهم) إلى صيغة المفرد (الله) ؛ وذلك استحضاراً للمهابة، وتأكيداً لإمكان الوقوع حقيقة.

ثانياً: المحاكاة العلمية لمعجزات الأنبياء:

تعد معجزات الرسل هي أموراً خارقةً للعادة؛ أي لِمَا اعتاده الناس الحاضرون والمشاهدون لتلك المعجزة؛ وهي معجزة خاصة بأولئك القوم دون سواهم لأنها معجزات حسية لا عقلية؛ فشاهدوها وعايشوها، والمعجزات الحسيّة تتوقف على حياة الرسول نفسه؛ فإذا مات الرسول توقفت معجزاته الشاهدة على صدقه، وهي لن تتكرر مع رسول آخر سيرسل في أجيال قادمة، وهذا لا يمنع من إمكان محاكاتها بحسب السنن الكونية بعد موت الرسول، بحسب الإمكانات العلمية التي حققتها الأجيال واكتسبتها على مرّ القرون الطويلة، وسلسلة الخبرات البشرية المتوالية، بحسب هذا المنطلق أيضاً، فقد كانت معجزات الأنبياء موافقة لما اشتهر فيه أولئك القوم[2]؛ فكانت معجزة موسى العصا لاشتهار القوم بالسحر، وكانت معجزة صالح الناقة لاشتهار القوم بتربية الإبل، وكانت معجزة عيسى الشفاء لاشتهار قومه بالطب، وهكذا فقد جاءت المعجزات منطلقة من نواميس الحياة تختلف من جيل إلى جيل، متحدية الطاقات الذهنية لتلك الأقوام أن يأتوا بمثلها، فكانت تلك المعجزات تحدياً صارخاً لا شك فيه ولا شبهة. وهذا ما يدفعنا إلى طرح سؤال مهم هو: لِمَ لَمْ تأت

(١) أولى ما قيل في آيات التنزيل، الشيخ رشيد الخطيب الموصلي: .

(٢) ينظر: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس و سناء فضل عباس: ٢٣-٢٤.

معجزة واحدة تتكرر على يد الأنبياء كلهم؟ فكلما جاء نبي كرَّرَ المعجزة الخارقة التي لا يمكن تقليدها قطعاً ؛ فتكون تلك المعجزة أولى بالتصديق كونها من عند الله الخالق؟. ثم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها؟.

نقول: لقد جاءت المعجزات منطلقة من السنن الكونية نفسها بدليل أنها اختلفت من قوم إلى قوم؛ لتكون قريبة مما اشتهر به أولئك القوم من القدرة والصناعة؛ فتمكن الرسول بحسب حركة معينة أو مسحة خفيفة أو إشارة هادئة -فيكون الرسول بذلك واقفاً على عتبة الطاقة الصفرية- من ركوب سنة كونية هائلة لا يأتي بها البشر في أي زمان حتى قيام الساعة إلا بمحاولة محاكاتها باستهلاك طاقات هائلة مبذولة تتنوع بتنوع تلك السنن.

ولعل معجزات الرسل هي أقصى ما يمكن أن يتصوره العقل البشري أو أن يصل إلى محاكاته بحسب ما أوتي من العلم على مرّ العصور والدهور، فجاء التنويع في معجزات الرسل مقصود ليقدم للعقول تنشيطاً في توسيع المدركات فيما بعد، ويحدث ذلك رجّات في تلك العقول -إن صح التعبير- لتنشط في ميادين العلوم والمخترعات. وهذا ما يقصده علماء التجديد كمحمد عبده ورشيد رضا وسعيد النورسي ورشيد الخطيب الموصلي؛ إنهم يسعون إلى دفع البشرية إلى إفراغ طاقاتها لاستثمار العطاء الإلهي من محاكاة معجزات الأنبياء؛ إنه التنوير الإلهي لبني البشر ليزداد يقينهم وإيمانهم أن الله تعالى خالق البشرية وخالق نواميس الكون، وهو سبحانه من أرسل الرسل.

إن دراسة المعجزات اليوم دراسة علمية، ثم محاولة محاكاتها؛ وقد حاكاها العلم فعلاً في بعض جوانبها؛ نقول: إنّ ذلك لا يطعن بالعقيدة في شيء؛ فمن أمثلة ذلك معجزة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها....» [1]؛ والعلم اليوم يفعل ذلك باعتماد الأقمار الصناعية وتقناتها، ثم إنه صلى الله عليه وسلم في معجزة الإسراء عندما سُئل عن المسجد الأقصى فتجلى أمامه فقام بوصفه باباً باباً والعلم اليوم يمكن أن ينقل الصور والأحداث مباشرة ويمكنك أن تشاهد وتصف. لقد اختلف شيء واحد في الحالتين هو الطاقة التي يبذلها العلماء اليوم لتحقيق ذلك، بينما الرسول يقف على عتبة الطاقة الصفرية في تحقيق ذلك، فتبقى المعجزة قائمة.

أمثلة على المحاكاة العلمية لمعجزات الأنبياء عليهم السلام:

ففي قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[سورة سبأ: ١٢]؛ إذ تمكن الإنسان من اختراع ما يشبه طريقة سليمان عليه السلام في تسخير الريح، بصناعته للمناطيد والطائرات ثم وسائل الطيران الشخصي. وحول تسخير الشياطينِ لسليمانَ عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨٨٩) ٤ / ٢٢١٥، والترمذي رقم (٢١٧٦) ٤ / ٤٧٢، وأحمد رقم (٢٢٤٤٨) ٥/ ٢٧٨، ورقم ٢٨٤/ ٥ (٢٢٥٠٥).

وَيَعْمَلُونَ عَمَلا دُونَ ذَلِكَ﴾[الأنبياء:من الآية ٨٢]، فقد كانت الجن تعمل لسليمان عليه السلام في تحصيل الرخام والمها الأبيض الصافي من معادنه، فبنى المدينة(١). وهذا ما تفعله التكنولوجيا اليوم تماماً بتمام؛ إذ تقوم الشركات المتخصصة بالحفر وجلب أفضل أنواع الرخام من قيعان البحار وأعماقها. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾[النمل: من الآية ٣٩]، قال العلامة رشيد الخطيب الموصلي: (أي كتاب هذا الكون، أي الذي عنده علم من سنن الكائنات)(٢)، وقوله: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل:من الآية ٣٩]، يقول الخطيب الموصلي: أي بسرعة خطف البصر، وليت شعري: هل يأتي يوم تنقل فيه الأثقال على هذه السرعة بمقتضى النواميس الكونية، كما تنتقل الأصوات الآن، وكما تلمح عنه هذه القصة، والله أعلم بذلك(٣). وحول إلانة الحديد لداود عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[سبأ: ١٠]، فألَان له الحديد وجعله كالعجين أو كالشمع يتصرف به كيفما يشاء دون أن تمسه النار أو أية معالجة أخرى كالطرق أو غيره. وكما هو معلوم فإن إلانة الحديد أو إذابته، وكذلك المعادن الأخرى تعد اليوم واحدة من مسلمات القفزة في الصناعات الحديثة بأغلب صورها وأشكالها؛ بل إن التحكم في إلانة المعادن وإذابتها تعد اليوم مُتَّكأ لتكنولوجيا التعدين. وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء: ٦٩]، واليوم يصنع الإنسان البزة الخاصة برجال إطفاء الحريق، فيدخل رجل الإطفاء في أجواء الحريق دون ضرر يصيبه. وحول معجزة حفظ الغذاء قال تعالى: ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[البقرة: من الآية ٢٥٩]، فهذا الحفظ للطعام والشراب جاء على سنّة كونية لا نعلمها قد تتحقق مستقبلاً .. فعلى المتخصصين أن يبحثوا عن طريقة لحفظ الأطعمة والأشربة قد تدوم لعشرات السنين، وكم سيكون لهذا الاكتشاف أهمية كبرى في الاقتصاد العالمي. ثم إن هذا الأمر أصبح حقيقة علمية واقتصادية فحفظ الأغذية واحد من أهم ركائز الغذاء والاقتصاد اليوم.

معجزة اليوم تكنولوجيا الغد:

تحت هذا العنوان وهو آخر ما كتبه دوكنز في كتابه سحر الواقع فإنه يطرح مسألة مهمة جداً مفادها، أن المعجزات إن كانت صادقة وحقيقية فينبغي أن تكون موافقة للسنن الكونية لا كاسرة لها، والفارق الوحيد بينها وبين العلوم التي توصل إليها الناس وقت وقوع المعجزة أنها تقدّم فكرة علمية مستقبلية يمكن أن يُحاكيها البشر مستقبلاً باعتماد التقدم العلمي والتقني بعد قرن أو أكثر من الزمان، فيبدو أن دوكنز استشعر هذا الموضوع فتيقن من توافقات المعجزات الصادقة التي وقعت قبل قرون كثيرة لأنبياء الرسالات السماوية مع تكنولوجيا اليوم واندماجها معها، يقول دوكنز: (وإذا ما ظهر شيء ما بدا أنه غير قابل للتفسير

(١) أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي: ١٨٨/٥.
(٢) م.ن.: ٤٤٨/٥.
(٣) م.ن: ٤٤٨/٥-٤٤٩.

العلمي تستطيع أن تستنتج بمنتهى الاطمئنان واحداً من أمرين: إما أنه لم يحدث في الواقع -الملاحظ أخطأ أو كان يكذب أو كان ضحية خدعة-، أو أن لدينا قصوراً من نوع ما في علومنا الراهنة... ولا ننعم براحة حتى نقوم بتطوير علومنا كي تتمكن من توفير التفسير الصحيح.... إنه تحدٍّ يجب علينا أن نرتفع لمستواه. وسواء أرتفعنا لمستوى التحدّي باستقصاء الحقيقة من المشاهدات، أو عن طريق توسيع مجالات علومنا في اتجاهات جديدة ومثيرة، فإن الاستجابة الصحيحة والشجاعة لأي تحدٍّ كهذا تتمثل في مُصارعته وجهاً لوجه. وحتى نجد إجابة مناسبة لهذا الغموض علينا أن نقولها بصراحة تامة: هذا شيء لم نتوصل لفهمه حتى الآن لكننا نعمل عليه. في الحقيقة هذا هو الشيء الصحيح الواجب عمله)[١].

هذا ما يُقنع دوكنز وأمثاله في أي قضية تبدو أنها خارج نطاق العلم المعاصر، وهذا فعلاً ما نبّهنا عليه في بعض حلقات برنامجنا (آيات بيّنات)[٢] من المحاكاة العلمية للمعجزات الحسية. فمعجزات الأنبياء الواردة في القرآن الكريم جميعها مندرجة ضمن القدرة البشرية على محاكاتها فحسب في عصر العلم، أي استلهام بعض من الأفكار العلمية منها، وهي بذلك تكون بمثابة داعم علمي في تنشيط الأفكار العلمية والرؤية المستقبلية لتطور العلوم. والأمثلة على ذلك كثيرة.

إن تطبيق أفكار المعجزات النبوية باعتبارها أفكاراً تكنولوجية لهو دليل قاطع على صدقها وصدق من جرت على يديه وهم الأنبياء والرسل، وأن ما ظهر على أيديهم من معجزات هو في حقيقة الأمر مواكب للسنن الكونية داعم للتقدم العلمي.

السحر البطيء في التطور:

من خلال هذا العنوان يفتح دوكنز نقاشاً مهماً حول نظرية التطور فيبدأ النقاش بقوله: (لتحويل كائن عضوي معقد إلى كائن عضوي معقد آخر في خطوة واحدة كما في حكاية خرافية- سيكون حقاً عملاً خارجاً عن عالم الاحتمال الواقعي)[٣]. هذه العبارة التي طرحها دوكنز هي بالضبط كما سمّاها بالسحر البطيء، فهو هنا يشبّه التطور[٤] بالسحر الذي يمكنه أن يجعل من الضفدع إنساناً بلحظة واحدة، أمّا التطور فيجعل من الضفدع إنساناً ولكن بملايين السنين. فالقضية هي قضية زمن فحسب. فمن صدّق بالتطور عليه أن يصدّق بتلك القصة الخرافية التي يتحوّل فيها الضفدع إلى أمير، لولا الفترة الزمنية القصيرة جداً تلك التي يستغرقها الساحر في تحويل الكائنات إلى كائنات أخرى.

يقول دوكنز: (إن الأسلاف التي تشبه البكتريا يمكن أن تتغير إلى سلالات تشبه الإنسان، وذلك

---

(١) سحر الواقع: ٢٧٢.

(٢) برنامج (آيات بيّنات)، تقديم: أحمد عامر الدليمي، يدور حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مكون من (٢٩) حلقة، تم عرضه على قناة الموصلية، في شهر رمضان لعام ١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م.

(٣) سحر الواقع: ٢٤ .

(٤) فما أتت به نظرية التطور هو أن الكائنات الحية كلها نشأت من مصدر واحد وخلية واحدة. [ينظر: سحر الواقع: ٢٧-٢٨].

بالضبط هو ما حدث، هذا ما حدث في تاريخ كل حيوان ونبات استمر على قيد الحياة، وعدد الأجيال اللازمة أكبر مما أستطيع أنا وأنت أن نتخيّل احتماله، لكن العالم يعود تاريخه إلى ملايين السنين.... وفي واقع الأمر إنّ تدرّج عملية التطوّر هو الذي أتاح له عمل الأشياء المعقدة مثل الضفادع والأمراء [أي الإنسان المتحضر]، والتغيير عن طريق أعمال السحر من ضفدع إلى أمير لن يكون تدريجياً بل مفاجئاً)[1].

فالتطور بواسطة الانتقاء الطبيعي سحر يستغرق دهراً: وهي فكرة طرحها الكثيرون لكنها عند داروين أصبحت أيقونة تبنّاها الملحدون ليدلّلوا على أن الطبيعة وحدها هي السبب في الخلق ولا حاجة لوجود إله. ويرى دوكينز أن الانتقاء الطبيعي واحدة من أكثر الأفكار أهمية مما طرأ على المخ البشري، والتطور بطئ وتدريجي على نحو بالغ. فالتطور كالسحر إلا أن التطور بطيء جداً على خلاف السحر. إن تدرج عملية التطور هو الذي أتاح له عمل الأشياء المُعقدة مثل الضفادع والأمراء، فتحول الضفدع في ملايين السنين إلى أمير [إنسان متحضر له مكانة عظيمة بين أقرانه]. وهذا بالضبط ما يفعله السحر عندما يتحول فجأة الضفدع إلى أمير. وهذا السحر هو ما يتحكم في أشياء كهذه خارج عالم الواقع. هنا يفترض دوكنز إذن وجود عالم خارج عالمنا الواقعي الذي نعيشه، وللزمان قدرة على تفعيله. وقول دوكنز في تمييز الزمن كونه هو العنصر الفاعل في هذا التحول من خلق إلى آخر أو في إحداث التغييرات الهائلة يُذكّرنا بالحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: أنا الدَّهْرُ، الأَيَّامُ و اللَّيالي أُجَدِّدُها و أُبْلِيها، وآتِي بِمُلوكٍ بعدَ مُلوكٍ)[2].

هنا لابد من وقفة مع ما ضربه دوكنز من المقابلة بين السحر[3] والتطور في الخلق. إذ إن دوكنز هنا يُقر بأن التطور هو كالسحر تماماً بتمام بيد أن السحر من عالم الخيال والتطور من عالم الحقيقة وسبب ذلك أن السحر يحدث فجأة وأن التطور يحدث بحقبة زمنية طويلة. إذن الزمن هو الفاصل بين قبول السحر من عدم قبوله عند دوكنز.

الانتقاء أم الاختيار في الخلق:

يقول دوكنز: (هذه فكرة داروين العظيمة، وتسمى التطور بواسطة الانتقاء الطبيعي)[4] . هذه الفكرة طبعاً ليست جديدة كثيرون قبل داروين طرحوا هذه الفكرة. لكن الانتقاء هنا يزعمون أنه طبيعي أي

(١) سحر الواقع: ٢٧-٢٨ .

(٢) (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ يقولُ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فلا يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فإنِّي أنا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ ونَهارَهُ، فإذا شِئْتُ قَبَضْتُهُما) رواه الألباني في السلسلة الصحيحة، والحديث إسناده جيد على شرط مسلم، وهو حديث صحيح.

(٣) ملاحظة مهمة: السحر عند دوكنز يشمل الأساطير التي ابتدعتها الأديان الوثنية المختلفة لكن دوكينز يخلط معها المعجزات التي أتى بها الأنبياء أيضاً، لذلك فإنه يعتبرها من الأساطير التي لا حقيقة لها. المشكلة أنه يعتمد على روايات العهد القديم في التعرف على معجزات الأنبياء، ومعروف أن قصص العهد القديم فيها كثير من التحريف، وهي غير مقنعة حتى بالنسبة إلى المسلمين.

(٤) سحر الواقع: ٢٨ .

أن الطبيعة قد تكفّلت به. والعلماء إلى هذه اللحظة يجهلون آلية (أو ميكانزم) الانتقاء الطبيعي.. بينما يقول المؤمنون أن هذا الانتقاء هو اختيار الله تعالى في خلقه ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: من الآية ٦٨] فالانتقاء هو الاختيار فهي فكرة واردة في النص القرآني، ثم قال سبحانه ردّاً على من يدّعون أمثال هذه الأفكار قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: من الآية ٦٨]. إذن قضية الانتقاء أو الاختيار موجودة في المعتقد العلمي والمعتقد القرآني ولكن الاختلاف بينهما هو: من يقف وراء ذلك الاختيار أو الانتقاء؟. فالدهر هو الذي (يختار أو ينتقي) على رأي دوكنز كما وضحنا، وهذا قريب من رأي الدهريين. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)﴾، بينما يعتقد المؤمنين أنّ الله سبحانه هو الذي (يختار).

المبحث الثالث
موضوعات أخرى

يتضمن هذا المبحث مجمعاً لعدد من الموضوعات المهمة التي طرحها دوكنز في كتابه سحر الواقع، حاولنا في هذا المبحث أن نقف على ستة منها. وفيما يأتي تفصيل ذلك:

أولاً: مَنْ كان الإنسانُ الأولُ:

يؤكد دوكنز أنه لا يوجد إنسان أوّل ذلك لأن كل إنسان يلزمه أبوان، وأولئك الآباء لابد أن يكونوا من بني الإنسان أيضاً[١].

هنا يطرح دوكنز تجربة فكرية من الخيال: هب أنك أخذت صوراً لك ولأبيك ولجدك ولأبي جدك وهكذا تستمر في أجيال متوالية وصولاً إلى الأب الأول، فكم عدد الأسلاف الذين نحتاج إليهم في تجربتنا الفكرية؟ اووووه فقط ١٨٥ مليوناً أو نحو ذلك، هذه الصور للأجداد ستكوّن برجاً ارتفاعه ٢٢٠ ألف قدم[٢]. يقول دوكنز: (فإن جدك الأكبر رقم ١٨٥ مليوناً كان سمكة وكذلك جدّتك رقم ١٨٥ مليوناً، وهو ما يحدث تماماً وإلا لم يكن بمقدورهما أن يتناسلا معاً، ولم تكن أنت قد جئت إلى هنا)[٣].

ثم يفترض دوكنز استكمالاً لتجربته الفكرية أنه

---

(١) برنامج رحلة في الذاكرة، قناة روسيا اليوم، بتاريخ ٢٣/ ٩/ ٢٠٢٠ مع العالم الروسي قسطنطين سيفيرنوف؛ إذ يقول: إن الغموض جزء من الصيرورة العلمية لا محالة فنحن ما أوتينا من العلم إلا قليلاً وهذا يعرفه كل عالم راسخ في علمه. كيف ظهرت الحياة عموماً؟ حتى الآن ليس بمقدور العلم المعاصر أن يجيب عن السؤال. كيف ولدت الحياة وكيف نتج الحي من اللاحي؟ كيف انطلقت جميع هذه الصيرورات ليس بوسعنا الاجابة عن هذا السؤال. ولكن دراسة الجينوم تتيح لنا الوحدة الجامعة بين كل ما هو حي فعلم الوراثة يبين أن هذه الكائنات هي شيء واحد. نقول: هذا مصداق قوله تعالى: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء). أنظر هنا وصف الاشتراك في الخلق بأنه (كتاب) ولعله أفضل وصف للمعلوماتية المشتركة بين الحيوانات ومنها الإنسان.

(٢) ينظر: سحر الواقع: ٣٨.

(٣) م.ن.: ٣٩.

ركب آلة الزمن وعاد إلى الماضي إلى قبل (٦ ملايين سنة) فسوف نعثر على الجدود الكبار رقم (٢٥٠٠٠٠) سيكونون من النسانيس وربما كانوا أشبه بالشمبانزي بدرجة ما[١]. وفي المحطة (١٠٥ مليون سنة) سنلتقي بجدنا الـ(٤٥ مليوناً) سيكون أجدادنا من البلاثيوس منقار البطة وقنفذ النمل الموجود الآن في استراليا (نيوغينيا). وفي المحطة (٣١٠ مليون سنة) سنلتقي بالجد رقم (١٧٠ مليوناً) وهو من قبيل الزواحف كالثعابين والسحالي والسلاحف والتماسيح[٢]. وفي المحطة (٣٤٠ مليون سنة) سنلتقي بأجدادنا رقم (١٧٥ مليوناُ) وهو من قبيل البرمائيات مثل سمندل الماء والضفادع[٣]. أما المحطة الزمنية الأخيرة (٤١٧ مليون سنة) سيكون جدنا الأكبر رقم (١٨٥ مليوناً) وهو السمكة[٤].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بعد هذه التجربة الفكرية التي يحاول دوكنز أن يقنعنا بأن الطبيعة لوحدها هي وراء مليارات الأنواع من المخلوقات، وأن هذه الحيوانات التي نراها أمامنا إنما هي أبناء عمومتنا. نقول فلِمَ لم تتطور هذه الأنواع المليارية إلى آدميين ما دمنا أننا تطورنا من السمك فالبرمائيات فالسحالي فمنقار البط فالشمبانزي والنسانيس؟ .. لماذا استمر كل هؤلاء على حالهم المعهود ولم يتطوروا كما تطورنا. لماذا بقيت السمكة كحالها إلى هذا اليوم نأكلها على المائدة؟.

من المؤكد يعجز المدّعون بنظرية التطور -بالطريقة التي وصفها دوكنز- عن الإجابة عن هذا التساؤل الواضح وكذلك يعجز علماء الأحياء عن تقديم إجابة دقيقة علمية مقنعة ترتكز إلى حقائق.

يقول دوكنز: (أما الحقيقة التي لا يطالها الشك فهي أننا نشترك في سلف واحد مع كل الأنواع الأخرى للحيوانات والنباتات على هذا الكوكب... أليست تلك فكرة أكثر مدعاة للتعجب من أي أسطورة؟)[٥]. فهو هنا يطرح مسألة علمية لا شك فيها بحسب اعتقاده، ولكنه في الوقت ذاته يجدها أعظم غرابة مما يطرحه المؤمنون من أن الله خلق آدم ونفخ فيه من روحه وعلّمه الأسماء كلها فكان آدم أول إنسان عاقل على وجه الأرض، فإن كان المؤمنون يطرحون فكرة أن الناس ينحدرون من أب واحد وأم واحدة فإن دوكنز يطرح فكرة أن كافة المخلوقات قد انحدرت من أصل واحد، ولكنه لا يعرف كيف يكون ذلك. وقد ورد في القرآن الكريم ما يشبه فكرة دوكنز في الاشتراك بين المخلوقات الحيوانية الحية؛ إذ إننا جميعاً معشر الكائنات الحيوانية تجمعنا علاقة أممية في الخلق قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]. ثم إن اللافت للنظر أن دوكنز توقف عند السمكة. فلماذا؟ السؤال هو لماذا لم يبين لنا دوكنز ما هو الأب

(١) م.ن.: ٤٧ .
(٢) ينظر: م.ن.: ٤٩ .
(٣) ينظر: م.ن.: ٤٩ .
(٤) ينظر: م.ن.: ٤٩ .
(٥) سحر الواقع: ٥٣.

قبل السمكة هل هو ذكر دودة مثلاً .. أم ماذا؟!!. هذا دليل على طبيعة التكهنات العلمية التي يطرحها دوكنز في هذه التجربة الفكرية -كما يسميها هو ليس- لها دليل من الواقع والعلم.

لا يهُمُّنا كثيراً نحن المؤمنين أن الإنسان وجد خلقاً كاملاً في لحظة واحدة أم أنه وجد على مدى ملايين السنين في تطور كما يقول أصحاب نظرية التطور. ولكن الذي يهُمُّنا في كل ذلك من الذي خلق؟ هل يمكن أن يوجد هذا المخلوق أعني الإنسان من صدفة؟. بالتأكيد كلا، الله تعالى يقول: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[سورة نوح: ١٣-١٤]. فالآية صريحة في أطوار خلق الإنسان، ولعل العلم سيكشف طبيعة تلك الأطوار. ولعل واحداً من تلك الأطوار أن الله تعالى نفخ في آدم روحه أي جعل له عقلاً، فميّزه عن سائر المخلوقات ومنحه القدرة بتلك النفخة على تعلم الأسماء واللغات وجعله قادراً على الفهم والاستنباط، فكان بذلك خليفة للأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: من الآية ٣٠].

ثانياً: التماثل والمقابلة بين تطور اللغات وتطور الحياة:

يقول دوكنز: (إن ثمة تماثل بين تطوّر اللغات والتطوّر في الحيوانات)(١)، ويصف أيضاً كيفية تفرّع الشجرة الحيوانية وإمكانية انقسامها إلى ملايين الأنواع، فيقول: يشبه هذا لحد كبير سبب انقسام لغات البشر(٢). وهذا أيضاً ما يؤكده البروفسور قسطنطين سيفيرنوف(٣): (بيولوجيا المعلوماتية يمكن مقارنتها باللسانيات؛ فاللسانيات يتيح لنا تحديد أن لغات عديدة تعود جذورها إلى اللغة الأصل وهي الآن مختلفة طبعاً لأنها تغيرت بمرور الزمن لكنها جاءت من لغة واحدة وهناك عدد هائل من المفردات الأجنبية المتشابهة فيما بينها في جميع اللغات اللاتينية الغربية مفردات متشابهة وهي بدورها جزء من المفردات الهندوأوربية العلماء يؤولون هذه الوقائع كدليل على تطور اللغات الطبيعية.. كان البشر في العصور القديمة عندما يغادرون كمجموعات معينة مكاناً ما ويحلّوا في مكان جديد ويبدؤون التواصل مع بشر آخرين يأخذون بلغتهم وهكذا تمازجت اللغات وفي النتيجة راحت تظهر لغات جديدة جذرها واحد وهي عند السلافيين اللغة الروسية الأوكرانية البلاروسية البولونية وغيرها لا أحد يشك أن هذه اللغات خرجت من لغة واحدة وبعد ذلك انفصلت كل منها عن غيرها، وكذلك في علم الوراثة عند الإنسان جينات واحدة مشتركة مع جينات الرئيسية مع جينات الأسماك والسحالي وغيرها ونحن جميعاً

(١) سحر الواقع: ٥٨.

(٢) م.ن.: ٦٢.

(٣) هو بروفسور بمعهد سكولكوفو الروسي للعلماء والتكنولوجيا، وجامعة روتجرز في ولاية نيو جرسي الأمريكية، ويشرف على مختبرات عدّة في معهد البيولوجيا الجزيئية ومعهد بيولوجيا الجينات لدى أكاديمية العلوم الروسية. [المصدر: برنامج رحلة في الذاكرة / في لقاء خاص معه].

قريبون جداً من بعضنا البعض على نحو مشابه لقرب اللغات السلافية من بعضها البعض) .

يقول دوكنز: (وكما في اللغات، تتمايز الأنواع بمرور الزمن وبتغير المسافة... وبالنسبة للأنواع المكافئ للكلمات هو الـ (DNA) المعلومات الجينية التي يحملها كل كائن حي في داخله وتحدد طريقة بنائه، كما رأينا في الفصل الثاني. وما إن يتناسل الأفراد جنسياً، فإنهم يخلطون الـ (DNA) الخاص بكل منهم) [1]. لقد توصل العلماء اليوم إلى هذا التشابه بين علم اللسانيات وعلم الوراثة بشكل واضح وأصبح أحد هذين العلمين دليل على الآخر، وهو الدليل نفسه الذي ضربه القرآن الكريم وجعله آية من آيات الله في الخلق فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[سورة الروم: ٢٢]، فجمع بين الألسن والخلق المادي للكائنات وأهمها الإنسان، ولعل أكثر الأمور ظاهرة في علم الوراثة هو صفة اللون. فاختلاف علم اللسانيات هو كاختلاف علم الوراثة. ثم إن كلمة (اختلاف) تدل على تجدد هذا الاختلاف مع الزمن. وبذلك تكون هذه الآية العظيمة دليلاً عظيماً على صدق القرآن وانسجام معطياته العلمية مع معطيات العلم الحديث واكتشافات العلماء.

ثالثاً: معنى التطور جاء في القرآن الكريم:

في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: من الآية ٨] فدلالة الفعل المضارع هنا (يخلق) تفيد التجدد هذا يعني أن عملية الخلق مستمرّة متجدِّدة، ومن ذلك الخلق المستمر في كل زمان ومكان ما يحدث من التطور الجيني. وقوله: (ما لا تعلمون) ؛ أي: ما تعلمون وما لا تعلمون، ولكنه اكتفى بالغالب وهو محدودية علم البشر، وهذا ما يؤكده اليوم كبار علماء الأحياء من المجهولية الكبرى في قضايا الخلق والجينيوم على وجه الخصوص. وفي الحديث عن تغير الجينات وتطورها في الخلق يقول دوكنز: (لعل تغير الجينات على مدى الأزمنة هي الطريقة نفسها التي تتغير بها اللغات على مدى قرون)[2]. ويقول دوكنز واصفاً التطور: (يعني التطور تغيراً في المستودع الجيني.. والتغيير في المستودع الجيني معناه أن بعض الجينات صارت أكثر عدداً، وبعضها أقل عدداً، والجينات التي اعتادت على الشيوع صارت نادرة، أو اختفت تماماً. بينما الجينات النادرة قد أصبحت شائعة، والنتيجة حدوث تغيير في الشكل أو الحجم أو اللون أو السلوك)[3].

ثم يعود دوكنز لمقابلة التغييرات التي تحدث في عملية التطور الجينية مع عملية التطور الألسنية إذ يقول: (فكلمات مثل: thee و avast و thou وعبارات مثل: stap me vitals قد سقطت بشكل أو بآخر من الانكليزية على الجانب الآخر، فإن التعبير: (I was like) يعني أنا قلت والذي هو تعبير غامض

(١) سحر الواقع: ٦٦.

(٢) سحر الواقع: ٧٥.

(٣) م.ن.: ٧٥.

في الوضع الحديث عمّا كان منذ ٢٠ عاماً، بينما أصبح الآن عاديّاً، مثله في ذلك مثل كلمة cool كتعبير عن الموافقة)[(١)]. فيريد دوكنز من خلال هذه الأمثلة في التغيرات اللغوية التي حدثت على الكلمات ومعانيها والعبارات اللغوية ومعانيها ودلالاتها أن يقول كذلك التطور الجيني فإن كثيراً من الجينات يحصل عليها كما يحصل على تلك التغيرات اللغوية. وهذا تماماً مصداقٌ لقوله تعالى: (ويخلق ما لا تعلمون)، وهو كذلك مصداق لقوله سبحانه: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ .كما أن ما يذكره العلماء اليوم لا يخرج عن سياقات المعنى المبهر الذي جاء به قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: من الآية ٨٥].

رابعاً: الشمس مصدر الطاقة:

يقول دوكنز: (لو كان هناك شيء ما مماثل لنوع حياتنا، على الأقل، فمن المحتمل أن يكون على كوكب يبعد مسافة ظاهرية من نجمة مساوية تقريباً لبعدنا عن الشمس)[(٢)]. هذا يعني أن طاقة الشمس هي الطاقة الضرورية لوجود حياتنا أو حياة مماثلة لحياتنا. وهذا ما ذكره القرآن الكريم وتعلّمته أجيال المسلمين على مدى أربعة عشر قرناً؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦].

يسأل ريتشارد دوكينز: لماذا ينبغي على الحياة أن توجد قرب أحد النجوم ؟.. يجيب فيقول: لأن كل أشكال الحياة بحاجة إلى طاقة[(٣)].. فإذا انطفأت الشمس عن الكوكب توقفت الحياة وانتهت.. قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[التكوير: ١] فجعل الشرط الأول ليوم القيامة هو تكور الشمس أي ذهاب طاقتها.. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ [يونس: ٥]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾ [الفرقان: ٦١]. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ [نوح: ١٦]. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ [النبأ: ١٣].

والمصدر الواضح للطاقة هو ضوء النجوم، ولكن يقتضي أن يكون النجم ومنها الشمس، وعلى الأرض تجمع النباتات الطاقة من ضوء الشمس وتجعلها متاحة للكائنات الحية الأخرى كلها، وتصنع النباتات غذاءها بضوء الشمس، فتصنع المواد السكرية، الذي هو نوع من الوقود الضروري لصنع كل شيء آخر تحتاج إليه، وبمجرد حصولك على السكر تستطيع حينئذ إحراقه للحصول على الطاقة، وعملية الحرق نعني بها وسيلة لتحرير الطاقة في شكل وقود. ورقة النبات الخضراء هي المصنع الخاص بتحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة من نوع آخر تستفيد منها كائنات الأرض كلها، هي لوح شمسي هائل تماماً منبسط على وجه اليابسة؛ بل إن ألواح الطاقة الشمسية مستوحاة من شكل الورقة ووظيفتها. هذه المصانع الكونية الهائلة تتسم

(١) م.ن.: ٧٦.
(٢) سحر الواقع: ١٤٤.
(٣) م.ن.: ١٤٤.

بالكفاءة والجمال والأمثلية وكلها موجودة بمقادير ثابتة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: من الآية ٥٩]، فتقتنص الألواح الخضراء ضوء الشمس والنواتج النهائية للمصنع هي السكر من كافة الأنواع. وعندما تُؤكل النباتات بواسطة آكلات العشب (التي تتغذى على النباتات فقط) مثل المواشي والأرانب تمر الطاقة إليها وتستخدمها في بناء أجسامها وأيضاً كوقود لعضلاتها. فالطاقة التي تتولد في عضلات آكلات العشب في بناء أجسامها ووقود عضلاتها وهي تمشي وتقتات وتتزاوج وتتقاتل تأتي أساساً من الشمس.. ومن ثم تأتي الحيوانات الأخرى (آكلات اللحوم) التي تتغذى على اللحم فقط.. لتتغذى على آكلات العشب.. لتنتقل الطاقة مرة أخرى لتساعد في تقوية عضلاتها في الاصطياد والتسلق والتناسل وغيرها من الأعمال اليومية[1].. فتكون الشمس هي المصدر الرئيس للطاقة. وهناك كائنات أخرى مثل الطفيليات تتغذى على الأجسام الحية لكل من آكلات العشب وآكلات اللحوم .. ومرة أخرى فإن هذه الطاقة التي تتزود بها الطفيليات تأتي في النهاية من الشمس.. وفي الختام ما أن يموت كائن ما سواء كان نباتاً أو آكل عشب أو آكل لحوم أو طفيلياً.. فقد تقتات عليه حيوانات تتغذى على البقايا مثل الخنافس أو ربما يتحلل ليكون غذاء للبكتريا والفطريات.. ومرة أخرى فإن الطاقة القادمة إلى هذه الكائنات الحية تأتي من الشمس نفسها[2]. فالشمس إذن هي مصدر الطاقة وهذا ما أكده القرآن الكريم في مواضع عديدة وآيات منسجمة في الوصف مع معطيات العلم الحديث.

خامساً: حديث من خلق الله:

أثار الملحدون ودعاة الإلحاد تساؤلات مشككة بوجود الله، فيتساءلون إن كان الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟.

هنا سنجيب على هذه التساؤلات بطريقة غير مباشرة.. فنجعل دوكنز يجيب بنفسه عنها، يقول دوكنز: (سيقول لك بعض العلماء إن الزمن نفسه قد بدأ مع الانفجار العظيم، وينبغي ألا نسأل بعد الآن عما حدث قبل الانفجار العظيم، وإلا وجب علينا أن نسأل ما هو شمال القطب الشمالي.. أتجد صعوبة في فهم ذلك؟ وكذلك أنا. لكنني أفهم نوعاً ما دلائل وقوع الانفجار العظيم ومتى حدث.)[3].

هنا يظهر من كلام دوكنز أنه ليس كل ما يخطر ببال الإنسان من أسئلة هي أسئلة مشروعة وتمتلك إجابات، فالسؤال عمّا سبق الانفجار العظيم لا يمكن أن يجد أحد إجابة عليه، وهو شبيه بالسؤال عما هو شمال (القطب الشمالي) ثم ما هو شمال (شمال القطب الشمالي) وهكذا تستمر سلسلة الأسئلة الحلقية التي لا نهاية لها. هنا نتساءل إن كان السؤال عن المخلوقات يكون بعضها غير مشروع لعدم إمكان الإجابة عليها قطعاً وهي مهما كبُرت جُزء لا يتجزأ من الكون وماضيه. فما بال الملحدين يطرحون أسئلة كقولهم:

(١) سحر الواقع: ١٤٥.
(٢) م.ن.: ١٤٦.
(٣) م.ن.: ١٧٢.

(من خلق الله؟).

الله خالق كل شيء ولا شيء قبله سبحانه. فقد روى البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟)، وفي رواية أخرى: (فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه).

سادساً: البحث عن نطاق صالح للسكن:

يذكر دوكنز تحت هذا العنوان قوله: (تعتمد الحياة –كما نعرفها– على الماء. ومرة أخرى ينبغي أن نتوخى الحذر من تركيز اهتمامنا على الحياة كما نعرفها نحن، لكن في الوقت الراهن يعتبر علماء البيولوجيا الفلكية (العلماء الذين يبحثون عن الحياة البيولوجية الإضافية) أنّ الماء مسألة أساسية إلى حد كبير، حتى إنّ جزءاً كبيراً من جهودهم منصب في البحث عن أماكن حيوية كدليل على وجوده. واكتشاف وجود الماء أسهل كثيراً من اكتشاف الحياة نفسها. وإذا وجدنا الماء فلا يعني ذلك بشكل مؤكد وجود حياة، غير أنها خطوة في الاتجاه الصحيح)[1].

ما يذكره دوكنز هنا يُستشف من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء: من الآية ٣٠]، وإلحاق (الماء) هنا بـ(ألـ التعريف) مهمة لبيان أن الماء هو في حالته السائلة، يقول دوكنز: (ولكي يكون ثمة وجود للحياة كما نعرفها، يتعين أن يكون هناك بعض المياه في الحالة السائلة، ولن تصلح الحالة الثلجية ولا الغازية)[2]. وهكذا تنسجم وتتناغم المعاني العلمية التي يطلقها دوكنز وغيره من علماء الغرب معتمدين على المعطيات العلمية التي تتوفر لديهم من ما جاء به القرآن قبل أكثر من ١٤٠٠ عام، هذه المعلومات والإشارات العلمية التي جاء بها القرآن الكريم مرّت على أسماء مئات الأجيال من المسلمين ومليارات الأسماع والأذهان وعلموا بها قبل أن يكتشفها العلماء بقرون كثيرة.

❁ ❁ ❁

الخاتمة: الاستنتاجات والتوصيات:

وفي ختام البحث فلابد من الوقوف على جملة من الاستنتاجات والتوصيات نوجزها بالنقاط الآتية:

الاستنتاجات:

١. تم الوقوف في هذا البحث على عدد من المسائل العلمية التي عدّها دوكنز وكثيراً من علماء الأحياء أدلة على أن الطبيعة هي المسؤولة عن كل ما وصلت إليه الحياة في تطور دام ملايين السنين. ثم ذكرنا الآيات القرآنية التي تناولت الإشارات العلمية نفسها، فذلك دليل قاطع على أن القرآن الكريم هو من عند الله سبحانه، وينبغي أن يكون مُقنعاً للعلماء الباحثين عن الحقيقة.

٢. ناقش دوكنز قضية الواقع المحسوس كونه هو

---

(١) سحر الواقع: ١٩٧.

(٢) م.ن.: ١٩٨.

الواقع الوحيد الذي يؤمن بوجوده، بينما ناقشنا من خلال معطيات كتابه سحر الواقع امتزاج عالم الغيب بعالم الشهادة والتواصل بينهما، فبيّنا أن كلا العالمين يتواصلان وينسجمان مع بعضهما.

٣. ناقش دوكنز ما أطلق عليه بالقصص الإعجازية وجعلها من قبيل القصص الخرافية، وقد تم الرد على طروحات دوكنز من خلال إمكانية المحاكاة العلمية لمعجزات الأنبياء الحسيّة. فكان ذلك دليلاً مهماً على أنّ الأفكار الكامنة في معجزات الأنبياء امتداد للسنن الكونية. وبالتالي فإنها موافقة للعلم ليس كما وصفها دوكنز بأنها تُحدِثُ إرباكاً للعلوم.

٤. إن ظهور موجة الإلحاد العلمي في الغرب سببها خطأ فكري فظيع نشأ بسبب فكرة تجسيد الإله عند الغربيين، وهذا الأمر انعكس على تصوراتهم في استحالة قدرة الإله المتجسد (على صورة إنسان أو حيوان أو غير ذلك) على خلق الكون فضلاً عن قيوميته عليه وإدارته له.

٥. إن الأدلة على وجود الله وقدرته -الخالق لهذا الكون- مبثوثة في السماء وفي الأرض وفي أنفسنا، وهذا ما اعترف به العلماء الملحدون أنفسهم لكنهم لا ينسبون القدرة والخلق إلى الله تعالى وإنما يحرفونها إلى الطبيعة الصماء المخلوقة؛ إذ يدّعون بأنها قد خلقت نفسها بحسب قوانين معينة، أو إلى بعض من ظواهر تلك الطبيعة كالجاذبية وغيرها.

٦. إن ذكر الإشارات العلمية في القرآن الكريم التي أثبت العلم توافق نتائجه معها تعد دليل علمي على صدق هذا الكتاب، وأن الله تعالى هو خالق هذا الكون وأن ذلك يقتضي الإيمان بالغيب الذي ذكر في القرآن الكريم باعتباره الكفة الثانية الضامنة لكمال الإيمان وتوازنه.

التوصيات:

١. أن تكون أبحاثنا حول (الإلحاد العلمي) منطلقة من أرض علمية صلبة، وأن لا تكون كردود أفعال وتبريرات لأفكار الإلحاد العلمي المطروحة، بل تطرح كأفعال وأفكار قادرة على الوقوف بوجه هذا التيار الجارف في المجتمعات الغربية.

٢. مناقشة أفكار العلماء الملحدين الذين يتبنّون قضية الإلحاد في أبحاث علميّة مُحكّمة، وجمع تلك الأبحاث في كتب خاصة وترجمتها ونشرها على الصعيد العالمي.

٣. تكثيف المبادرات العلمية كالمؤتمرات والندوات والبرامج التلفزيونية ؛ يشارك فيها علماء متخصصون يبحثون المسائل العلمية، يبرزون من خلال ذلك عظمة الله تعالى في الخلق والتقدير ؛ إذ سيكون لمثل هذه البرامج الأثر الأكبر في تثبيت العقيدة الصحيحة للشباب خصوصاً والناس عموماً.

❃ ❃ ❃

المصادر والمراجع:

١. الاعجاز العلمي في القرآن والسنة، منهج التدريس الجامعي، أ.د.عبد الله بن عبد العزيز المصلح و د.عبد الجواد الصاوي،منشورات الهيئة العالمية

للإعجاز العلمي في القرآن والسنة،١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م .

٢. إعجاز القرآن الكريم، أ.د. فضل حسن عباس و د.سناء فضل عباس، دار النفائس، ط٧، الأردن، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م.

٣. أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، أروقة للدراسات والنشر،١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٤. أوهام الإلحاد العلمي (هل تتعارض الكشوفات العلمية مع الايمان بالخالق؟)، أ.د. محمد باسل الطائي، مركز دلائل، ط٢، المملكة العربية السعودية (الرياض)، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م.

٥. التصميم العظيم إجابات جديدة عن أسئلة الكون الكبرى، ستيفن هوكنك و ليونارد مولدينو، ترجمة أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ٢٠١٥.

٦. جامع الترمذي، محمد بن عيسى بن سوْرّة الترمذي، تحقيق: يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن حجر، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي البغدادي، تحقيق: د.السيد محمد السيد و سيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م : ٥/ ٧١ .

٨. سحر الواقع، ريتشارد دوكنز، دار التنوير للطباعة والنشر، ط٢، لبنان (بيروت)، ٢٠١٦.

٩. صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، مكتبة دار السلام ودار الفيحاء للنشر، دمشق، الطبعة الثامنة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٠. عالم المصادفة، بول ديفز، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987.

١١. كون من لا شيء، لورانس كراوس، ترجمة غادة الحلواني، منشورات الرمل، مصر (القاهرة)، ٢٠١٥.

١٢. طبيعة الحياة، فرنسيس كريك، موسوعة عالم المعرفة، مكتبة الأسرة، الكويت، 1999.